الباب الأول

لماذا قامت الدولة العبيدية ؟

الحقيقية أنه بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ انقسمت طائفة الإمامية على نفسها وصارت فريقين:

* فريق الإسماعيلية الذي ينتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وتسمى بالسبعية حيث إنهم رتبوا أئمتهم في جدول سباعي فكان ترتيبهم على النحو التالي:

علي بن أبي طالب، الحسن بن علي، الحسين بن علي، علي (زين العابدين) بن الحسين، محمد بن علي بن الحسين (الباقر)، جعفر الصادق، إسماعيل بن جعفر الصادق.

الفريق الثاني تسمى بالاثني عشرية، وكان الإمام السابع عندهم هو موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وزعموا أن الإمامة انتقلت بعد موسى إلى ابنه علي الرضا ثم توالى الأئمة حتى كان آخرهم الإمام الثاني عشر –ولم يكن له وجود حقيقي– وهو المسمى محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا.

obeikandl.com

طلب ميمون القداح بن ديصان من أبنائه أن يسموا أبناءهم بأسماء أبناء محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق فتشابهت الأسماء.

اعتمد عبدالله الرضى على عبدالله بن ميمون القداح في الدعوة له، وتحت وطأة مطاردة العباسيين له رحل عبدالله وابنه أحمد إلى بلدة قرب حماة تسمى سلمية، واتخذها دار هجرة للأئمة.

ولد عبدالله بنيسابور وتولى الإمامة بوفاة أبيه سنة ١٦٩ هجرية. وحين توفي عام ٢١٢ الهجري قام ولده أحمد بالإمامة، وأرسل الدعاة لنشر الدعوة في البلاد الإسلامية، وتوفي باستانبول سنة ٢٢٩ هجرية فخلفه ابنه الحسين في الإمامة وتلقب بالمقتدي وبالزكي، وقد تولى زعامة الإسماعيلية وتمكن من نشر دعوته في اليمن، وفي بلاد المغرب.

فقد أفلح الداعيان الشيعيان علي بن الفضل اليمني وأبو القاسم رستم ابن حوشب الكوفي في نشر الدعوة حين وصلا إلى اليمن سنة ٢٦٨ هجرية. بل إن ابن حوشب قاد جيشاً زحف به على صنعاء، واحتل كثيراً من أرجاء اليمن، وبعث الدعاة إلى بلاد المغرب ومصر والبحرين والسند.

أرسل الحسين بن أحمد داعيته أبا عبدالله الشيعي إلى اليمن سنة ٢٧٨ هجرية ليلقى ابن حوشب، ثم بعثه إلى بلاد المغرب بعد عامين ليوطد السلطان للدولة الوليدة في شمالي إفريقية، وفي هذه الأثناء توفي إبراهيم

ابن أحمد بن الأغلب رأس دولة الأغالبة بإفريقية سنة ٢٩١ هجرية، وضعف خلفاء إبراهيم عن حماية الدولة فاكتسحهم أبو عبدالله الشيعي وأزال سلطانهم، وأعلن قيام الدولة على ربوعها.

كان عبيدالله المهدي بن الحسين بن أحمد بن عبدالله ذا عقل رصين، وداهية لا مثيل له في التاريخ، فما إن تولى بعد وفاة الحسين حتى طمح إلى إقامة دولته وتأسيسها لتنطلق من بلاد المغرب إلى مصر والعالم كله.

وها هو عبيدالله يصل إلى مصر، ويرحب به أتباعه ويبثون العيون ليرصدوا تحركات جند الخليفة العباسي المكتفي، وأفلحوا في إخفائه عن الأنظار، فاستطاع الوصول إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى، ولكن سجنه هناك الخوارج الصفرية، وبقي حتى أنقذه أبو عبدالله الشيعي، حيث أخذت له البيعة، ثم انطلق إلى إفريقية واستقر في رقادة مقر الأغالبة، واتخذها حاضرة له سنة ٢٩٧ هجرية، وتلقَّب بالمهدي أمير المؤمنين، وبذلك نشأت الخلافة العبيدية في شمالي إفريقية.

لكن لم يطلق لقب معين على تلك الدولة في ذلك الزمان من أواخر القرن الثالث الهجري، وإنما عرف اللقب وانتشر بعد أن استقرت الأمور للدولة في مصر، وبعد تأسيس مدينة القاهرة وادعاء نسب عبيدالله إلى

obeikandl.com

الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والحقيقة أنه عبيدالله بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح بن ديصان.

وقيل: إن الحسين سار إلى سلمية من أرض حماة وله بها ودائع وأموال من ودائع جده عبدالله بن ميمون القداح ووكلاء وغلمان، وبقي ببغداد من أولاد القداح أبو الشلغلغ، وكان الحسين يدّعي أنه الوصي وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه، واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بسلمية فوصفوا له امرأة رجلٍ يهوديٍ حداد مات عنها زوجها -وهي في غاية الحسن- فتزوجها ولها ولد من الحداد يماثلها في الجمال فأحبها وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها وأدّبه وعلّمه فتعلّم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمّة كبيرة، فمن العلماء من أهل هذه الدعوة من يقول: إن الإمام الذي كان بسلمية -وهو الحسين- مات ولم يكن له ولد فعهد إلى ابن اليهودي الحداد -وهو عبيدالله- وعرّفه أسرار الدعوة من قولٍ وفعلٍ وأين الدعاة وأعطاه الأموال والعلامات، وتقدّم إلى أصحابه بطاعته وخدمته وأنه الإمام والوصي، وزوّجه ابنة عمّه أبي الشلغلغ، وهذا قول أبي القاسم الأبيض العلوي وغيره، وجعل لنفسه نسبًا وهو: عبيدالله بن الحسن بن علي بن

محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب، وبعض الناس -وهم قليل- يقولون: إن عبيدالله هذا من ولد القداح(*).

لكن حان الوقت أن نكمل حكاية تلك الدولة العجيبة التي ذكرها القاصي والداني.

نقول: لم يلبث عبيدالله المهدي بعد إعلان خلافته أن اختار نخبة من زعماء كتامة بالمغرب، ودفع بهم في جيشه تحت إمرة قائده أبي عبدالله الشيعي ليخضع بلاد المغرب الأوسط والأقصى وبخاصة قبائل زناتة، وذلك أواخر سنة ٢٩٧ هجرية.

وأفلحت الحملة في غايتها إلى أبعد الحدود، فبماذا كافأ عبيدالله قائده الشيعي؟! لقد سعى إلى الخلاص منه بالقتل.

لقد قرر الخليفة الخلاص من قائده خشية أن يصيب الناس بالفتنة أو أن يفوق نفوذه نفوذ الخليفة، وعهد الخليفة إلى أحد تلامذة الشيعي واسمه عروبة بن يوسف بقتل أبي عبدالله ففعل، وكان ذلك منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هجرية..

(*) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، أحداث عام ٢٩٦هـ.

obeikandl.com

هاجت بلاد المغرب لمقتل أبي عبدالله، فاستعمل عبيدالله المهدي أقصى الشدة لإخضاع ثورتها، ثم عهد بالخلافة إلى ابنه أبي القاسم.

سعى المهدي إلى الاستعانة بولاة يدينون له بالولاء، وسرعان ما ولّى عروبة بن يوسف على بلاد المغرب الأوسط، كما ولّى أخاه حباسة على المغرب الأدنى.

وتمكن عبيدالله من القضاء على نفوذ الأدارسة في مدينة فاس حين هزمت قواته جيوش يحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة وولّى الخليفة موسى بن أبي العافية، وهو من أمراء الأدارسة الذين مكنوا للخليفة من هزيمة الأمير يحيى الإدريسي على بلاد المغرب الأقصى.

ثم بدا للمهدي أن يبني حاضرة لخلافته تكون مقراً للدعوة الإسماعيلية، ووقع اختياره على موضع جنوبي القيروان فبنى مدينته المهدية وفرغ من ذلك سنة ٣٠٥ هجرية، وانتقل إليها بعد سنين ثلاث..

تولى أبو القاسم الملك بعد وفاة أبيه المهدي سنة ٣٢٢ هجرية وتلقّب بالقائم بأمر الله.

ثار الناس على القائم فاشتعلت فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي، وكان أبو يزيد من بلدة توزر، لكنه استقر بمدينة تاهرت واشتغل بتعليم الصبيان القرآن ومذهب الخوراج، ثم تزايد خطره حين دعا الناس إلى الخروج

obeikandi.com

على الملك القائم، وزحف إلى القيروان وهاجم مدن الخلافة بالمغرب واستولى على القيروان سنة ٣٣٤ هجرية.

وفي تلك الأثناء توفي الملك القائم فكتم ابنه إسماعيل الملقب بالمنصور خبر وفاته، وبعد سنتين استطاع القضاء على فتنة أبي يزيد بعد أن هزم جيوشه وقتله سنة ٣٣٦ هجرية.

نشط المنصور إلى إعادة النظام والاستقرار إلى أرجاء البلاد، واهتم بإنشاء أسطول عظيم، وبنى مدينة المنصورية قرب القيروان سنة ٣٣٧ هجرية، واتخدها حاضرة للخلافة.

توفي المنصور سنة ٣٤١ هجرية وآل الملك إلى أشهر العبيديين وهو ابنه المعز الذي طمع في توسعة رقعة الدولة في بلاد المغرب، وعهد إلى قائده جوهر الصقلي بإخضاع الثائرين، واستطاع ذلك القائد الاستيلاء على تاهرت سنة ٣٤٧ هجرية وبسط سلطان الدولة على سجلماسة.

ثم اتجهت أنظار المعز إلى مصر، كما طمح جده عبيدالله من قبل.

obeikandl.com